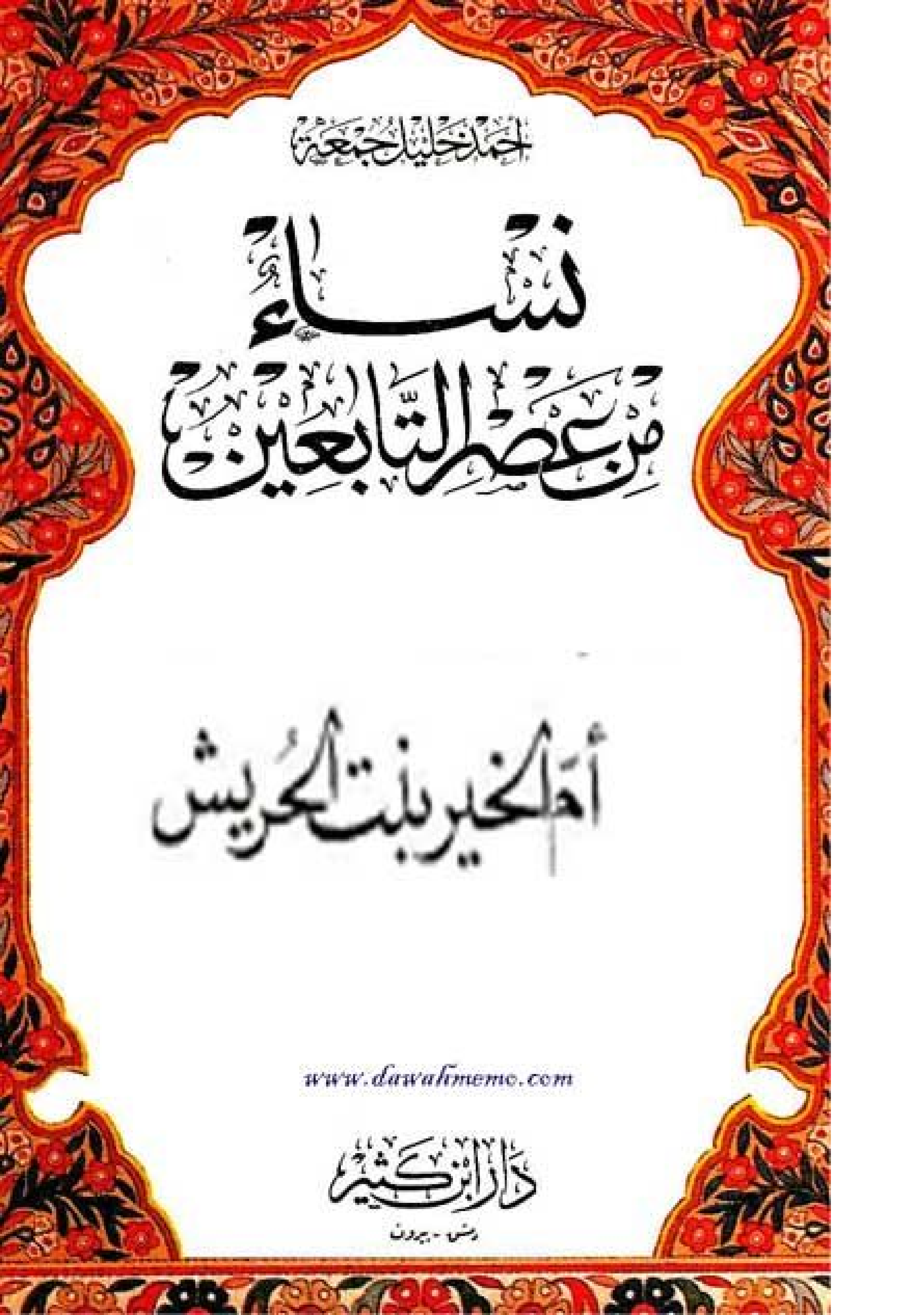


أحمد خليل جمعة
نساء من عصر التابعين
أم الخير بنت الحريش
www.dawahmemo.com
دار ابن كثير
دمشق - بيروت

(١٥)

أمّ الخير بنت الحُريش

* تابعيـة ، فصيحـة ، شجاعة ، وفدت على معاوية ، قوّالة بالحق ، حكيمة ، لها أقوال مأثورة .

أُمُّ الخَيْرِ بنْتُ الحُرَيْش

المَنزِلَةُ العُظْمَى :

* بعد عام الجماعة ، ومع صلح الحسن بن علي لمعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ، ظلّ حبُّ كثيرٍ من النّاس لآلِ البيت ، وشجرة رسول الله ﷺ لاصقاً بقلوبهم ، متغلغلاً في نفوسهم .

* ومع قربهم من عصر النّبوّة ، ومعرفتهم آل بيت النّبوة ، فقد كانوا يُنزلون آل النّبيّ ﷺ من قلوبهم أسمى المنازل وأقدسها ، ويعتقدون حبّهم ديناً وعقيدة ؛ لأنه حبٌّ لرسول الله ﷺ ، وقربة يتقرّبون بها إلى الله عزّ وجلّ ، وحبُّهم هذا حبٌّ يمثله قول المكفوف في آل سيّدنا محمّد ﷺ :

أحبُّكـم حبّـاً علـى الله أجـره * تضـمنَّه الأحشـاءُ واللّحـمُ والدّم[1]

* من هذه الفئة الكريمة تأتي تابعيةٌ عرفت باسم : أمّ الخير بنت الحُريش بن سراقة البارقيّة الكوفيّة[2] ، إحدى النّسوة اللاتي قدمن على معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وكان لها معه حديثٌ ومحاورة تفصحُ عن

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (١/٣٨) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٥١٢) ، والعقد الفريد (٢/١١٥) ، وأعلام النساء (١/٣٨٩) .

بلاغةٍ مكنونةٍ وجزالة رصينةٍ ، وتظهرُ فصاحتها البيّنة وقوّة حجّتها وشجاعتها وكمال أدبها .

* وقد عرفت أمُّ الخير بنت الحريش بأنَّها متكلمة بليغة من بليغاتِ الكوفة ، وذات رأي سياسي معروف لدى العاصمة الأموية بدمشق ، وأنّها ذات لسان لا يقاومه السِّنان ، ولعلَّ كلماتها في بعض المواقف كانت أشدّ تأثيراً من سيوف الرِّجال ، فهل أتاك نبأ قدومها على معاويةَ ؟ .

* * *

أُمُّ الخَيْرِ وكِتَابُ مُعَاوِيَةَ :

* يبدو من ثنايا الأخبار التي وصلتنا عن أمّ الخير هذه ، أنَّها امرأةٌ ذات مكانةٍ لا يُستهان بها في قومها ، وذات مكانة واحترام عند معاوية أيضاً ، وكما تدلُّ الأخبار بأنَّ رأيها كان مكان احترامٍ منْ ولاة الكوفة ، وكلُّهم يحسب لها حساباً ، حيث إنّها عُرفتْ بالاستقامة وعدم المحاباة لأحد ، واشتهرت بالصَّراحة التّامة والجرأة فيما تحبُّ أنْ تقولَ ، لهذا كلّه نالت أمّ الخير احترام جميع النّاس .

* ولما استقرَّ الأمر لمعاويةَ رضي الله عنه ، ـ وكان يعرف أمّ الخير من قبلُ ـ أحبَّ أنْ يسمعَ إلى أثارةٍ من كلامها ، ونبذٍ من حكمتها وفصاحتها ، ليعلم رأيها ـ الحالي ـ فيه وفي دولته .

* وتجمعُ الرّوايات التي وعتها المصادر بأنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ كتبَ إلى واليه بالكوفة أنْ أوفدْ عليَّ أمّ الخير بنت الحريش بن سراقة

البارقيّة ، وأوصاه أنْ تكون رحلتها رحلة محمودة الصُّحبة ، غير مذمومة العاقبة ، وأعلَمهُ أنّه مجازيه بقولها فيه بالخير خيراً ، وبالشرِّ شراً .

* فلما ورد الكتاب على الوالي(1) أسرع وركب إليها ، فأقرأها كتاب أمير المؤمنين إياه ، عندئذ قالت له :

أمّا أنا فغيرُ زائغةٍ عن طاعة ، ولا معتلّة بكذب ، ولقد كنتُ أحبُّ لقاء أمير المؤمنين لأمورٍ تختلجُ في صدري ، تجري مجرى النّفس ، يغلي بها غَلي المِرجل بِحَبِّ البُلْسُنِ ـ العَدَس ـ يوقد بجزل السَّمُر ـ أصل الشجر ـ .

* * *

صَرَاحَتُهَا وَقَوْلُهَا لِلْحَقِّ :

* واستعدت أمُّ الخير للتوجّه إلى الشّام ، ولقاء أمير المؤمنين معاوية ، وكان الوالي يبرُّها ويلطف أشد اللطف عساها أنْ تذكره بخير عند أمير

(1) لعلَّ الوالي هو المغيرة بن شعبة . قال الطبريّ : وأقام المغيرةُ على الكوفة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً ، وقد وليها سنة (٤١ هـ) .
والمغيرةُ بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفيّ ، أبو عبد الله ، من كبار الصّحابة أولي الشّجاعة والمكيدة ، يقال له : مغيرة الرأي . ولد بالطّائف سنة (٢٠ ق . هـ) وأسلم سنة (٥ هـ) ، وشهد بيعة الرّضوان واليمامة وفتوح الشّام ، وذهبتْ عينُه باليرموك ؛ ولّاه عمر على البصرة ثم ولاه الكوفة ، وأقرّه عثمان على الكوفة ثم عزله ؛ ولما حدثت الفتنة بين عليّ ومعاوية اعتزلها المغيرة . ثم ولّاه معاوية الكوفة فلم يزل فيها إلى أنْ مات في شعبان سنة (٥٠ هـ) وله سبعون سنة ، وللمغيرة (١٣٦ حديثاً) وهو أول مَنْ وضع ديوان البصرة ، وأول مَنْ سُلّم عليه بالإمرة في الإسلام وأخباره كثيرة ـ رضي الله عنه ـ . (سير أعلام النبلاء : ٢١/٤ ـ ٣٢) ، و (الأعلام : ٢٧٧/٧) .

المؤمنين ؛ ولكنّ أمّ الخير ليست كغيرها من النّسوة اللاتي تأخذهن العاطفة ذات اليمين وذات الشمال ، بل كانت جريئة تحبُّ قَوْلَ الحقّ من أجلِ الحقّ ، وهذا ما أفضتْ به إلى الوالي وأفهمته إياه ، إذ إنّه لمّا حَمَلَها وشيّعها ، وجهزّها أفضل جهاز وأحسنه ، وأراد مفارقتها قال لها : يا أمّ الخير ، إنَّ معاويةَ أمير المؤمنين كتب إلي أنّه يجازيني بقولك في بالخير خيراً ، وبالشّر شراً ، فانظريْ كيف تكونين ؟ !

قالت : يا هذا ، لا يطمعنّكَ ـ واللهِ ـ برّكَ بي في تزويقي الباطل فأسرّكَ به ، ولا تؤيسك معرفتي بك أنْ أقولَ فيك غير الحقّ .

* وبهذا برهنت أمُّ الخير على استقامتها في حياتها ، وعلى صراحتها قولاً وفعلاً ، ووعدت أنْ تقولَ الحقَّ ، وأنْ تضعَ النّقاط في أماكنها من الحروف ، فلا وَجل ولا خوف إلا من الله سبحانه وتعالى .

* * *

ذِكْرَيَاتٌ في مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ :

* تركت أمّ الخير البصرة ، وتوجهت تلقاء دمشق ، وسارت خير مسير ، فلما قدمت على معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنزلها بيتاً مع الحُرَم ثلاثة أيام ، ثم أذن لها في اليوم الرّابع بالدّخول عليه ، وعنده جلساؤه وخواصه .

فقالت : السّلام عليك يا أمير المؤمنين .

قال : وعليك السّلام يا أمّ الخير ، وبالرّغم منك دعوتني بهذا الاسم .

قالت : مه يا هذا ، فإنّ بديهة ـ مفاجأة ـ السُّلطان مُدْحضة

ـ مبطلة ـ لما يجب عِلْمه ، ولكلٍّ أجل كتاب .

قال : صدقتِ يا خالة ، فكيف حالك ؟ وكيف كنتِ في مسيرك ؟

قالت : لم أزل في عافية وسلامة حتى صرتُ إليك ، فأنا في مجلس أنيق ، عند مَلِك رفيق .

فقال معاوية : بحسن نيتي ـ والله ـ ظفرت بكم ، وأُعِنْتُ عليكم .

قالت : مه يا هذا ، والله لك من دحض المقال ما تُردي عاقبته .

قال : ليس هذا أردناك يا أمّ الخير .

فقالت : إنّما أجري في ميدانك ؛ إذا أجريتَ شيئاً أجريتُه ، فاسألْ عمّا بدا لكَ .

قال معاوية : أخبرينا كيف كان كلامك يوم قُتل عمار بن ياسر رضي الله عنه ؟

قالت أمُّ الخير : لم أكنْ والله رَوَّيته قبل ، ولا زوّرته بعد[1] ، وإنّما كانت ـ يومها ـ كلماتٌ نفثهن لساني عند الصَّدمة ، فإن شئتَ أنْ أُحْدثَ لك مقالاً غير ذلك فعلتُ وقلتُ .

قال :لا أشاء ذلك يا أم الخير .

ثم بعد ذلك التفت معاوية إلى أصحابه وجلسائه ، ـ وقد عاودته ذكريات قديمة ـ فقال لهم : أيكم يحفظ كلام أمّ الخير يومذاك ؟

---

(١) « رويت في الأمر » : فكرت فيه . و « زورت الكلام » : زينته وحسنته وهذبته .

فقال رجل منَ القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظي لسورة الحمد _ الفاتحة _ .

فقال معاوية : فهاتِهِ .

قال : نعم ، كأني بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم ، وعليها بُرْدٌ زيدي[1] كثيف النّسج ، وهي على جَمَلٍ أرْمَكَ _ رمادي اللون _ وقد أُحيط حولها حَوّاء[2] ، وبيدها سوط منتشر الضُّفيرة ، وهي كالفحل يهدر في شِقْشِقَتِهِ تقول :

﴿ يا أيها النّاس اتقوا ربكم إنّ زلزلة السّاعة شيءٌ عظيم ﴾ [الحج : ١] ، إنّ الله عزّ وجلّ قد أوضحَ الحقّ ، وأبانَ الدّليل ، ونوّرَ السّبيلَ ، ورفعَ العِلْم ، فلمْ يدعْكُم في عمياءَ مبهمةٍ ، ولا سوداءَ مدلهمّةٍ ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين _ عليّ _ أمْ رغبةً عن الإسلام ، أمِ ارتداداً عن الحقّ ؟! . أما سمعتم الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصّابرين ونبلوَ أخباركم ﴾ [محمد : ٣١] هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل .

ثم قالت : ﴿ قاتلوا أئمةَ الكُفْر إنّهم لا إيمان لهم لعلّهم ينتهون ﴾ [التوبة : ١٢] ، صَبْراً معاشرَ المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرةٍ منْ ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنّي بكم غداً قد لقيتم أهل الشّام ﴿ كأنّهم حُمُر مستنفرة * فرّتْ من قَسْوَرة ﴾ [القيامة : ٥٠ و ٥١] ، لا تدري أين يُسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة

---

(١) « الزيدي » : نسبة إلى زبيد بلدة باليمن مشهورة .

(٢) « الحواء » : ما يتخذ كالوسادة على الرحل .

بالدّنيا ، واشتروا الضّلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، ﴿ وعمّا قليل ليصبحن نادمين ﴾ [المؤمنون : ٤٠] حين تحلّ بهم النّدامة ، فيطلبون الإقالة ﴿ ولات حين مناص ﴾ [ص : ٣] .

ثم قالت : إلى أين تريدون رحمكم الله ؟ عن ابن عمّ رسول الله ﷺ وزوج ابنته ، ... ... ها هو مُفلق الهام ، ومكسّر الأصنام ، إذ صلى والنّاس مشركون ، وأطاع والنّاس مرتابون ؛ قد اجتهدتُ في القول ، وبالغتُ في النّصحية ، وبالله التوفيق ، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1] .

فقال معاوية : واللهِ يا أمّ الخير ما أردتِ بهذا الكلام إلا قتلي والله لو قتلتُكِ ما حرجتُ ـ أثمتُ ـ في ذلك .

قالت : واللهِ ما يسوؤني أنْ يُجريَ الله قتلي على يدي من يُسْعدني الله بشقائه ! .

* * *

قَدْ أعْفيتُكِ :

* بعد أن انتهى هذا الحوار الذي يدلُّ على شجاعة أمّ الخير وعلى بلاغتها بآن واحد ، أحبَّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ أنْ يعرف رأيها في فضلاء الصّحابة وأسيادهم ، وأنْ تصفهم ببلاغتها وفصاحتها ، ففعلت لما سألها عن سيدنا عثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، وأجابته إجابة

---

(١) عن تاريخ دمشق (ص ٥١٣ ـ ٥١٥) ، والعقد الفريد (١١٥/٢ ـ ١١٨) ، وأعلام النساء (٣٩/١ـ٨ ـ ٣٩٢) بشيء من التصرف والاختصار .

شــافيــة كافيــة صــادقة ، ووفّت كلّ ذي حقٌّ منهم حقّه من الإعظام والتكريم ، وبما هو له أهل ـ رضي الله عنهم ـ .

وابتدأ معاوية سؤاله لها فقال : يا أمّ الخير ، ما تقولين في عثمانَ بن عفان أمير المؤمنين وثالث الخلفاء الرّاشدين رضي الله عنه ؟

قالت : وما عسيتُ أنْ أقولَ فيه ! استخلفه النّاس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون .

فقال معاوية : إيهاً ـ حَسْبُك ـ يا أمّ الخير ! هذا والله أصلُكِ الذي تَبْنين[1] عليه ؟ قالت :

﴿ لكنِ الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ [النساء : ١٦٥] واللهِ ما أردتُ بعثمان نقصاً ، ولقد كان سبّاقاً إلى الخير ، وإنّه لرفيعُ الدّرجة غداً عند مليك مقتدر .

* وسكتَ معاوية ـ رضي الله عنه ـ لحظاتٍ ثم سألها قائلاً : فما تقولين في طلحةَ بنِ عُبيد الله رضي الله عنه ؟

قالت : وما عسى أنْ أقولَ في طلحة رضي الله عنه ؟ اغتيل في مأمنه ،

---

(١) يريد أن سوء رأيها في عثمان ـ رضي الله عنه ـ هو الذي دفعها إلى مناصرة علي رضي الله عنه .

(٢) طلحة بن عبيد الله : أحد السّابقين الأولين ، والأبطال المعلمين ، وعاشر عشرة بشّرهم رسول الله ﷺ بالجنّة ، وسادس ستة اختارهم عمر ـ رضي الله عنه ـ ليكون منهم الخليفة من بعده ، وأول صحابي بايع علياً ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمل ، وأصيب هنالك بسهم أودى به ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ، وأخباره كثيرة مباركة لا تنحصر في كتاب .

وأُتي من حيثُ لم يحذر ، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنّة .

فأردف معاوية قائلاً : فما تقولين في الزُّبير بن العوام[1] رضي الله عنه ؟

قالت : يا هذا لا تدعني كرجيع الثّوب الصَّبيغ يُعرك في المِرْكَن[2] .

قال معاوية : حقاً لتقولنَّ ، وقد عزمتُ عليك .

قالت : وما عسيتُ أنْ أقول في الزُّبير ابن عمّةِ رسول الله ﷺ وحواريّه ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنّة ، ولقد كان سبّاقاً إلى كلّ مكرمةٍ في الإسلام رضي الله تعالى عنه .

ثم صمتتْ لحظات ، وأحبّتْ أنْ يعفيَها من مثل هذه الأسئلة ، أو أنْ يغيِّر الحديث فقالت : وإنّي أسألك بحقّ اللهِ يا معاوية ، فإنَّ قريشاً تحدّث أنّك أحلمها ، فأنا أسألك أنْ تسعني بفضل حلمك ، وأنْ تعفيَني من هذه المسائل ، وتسألني عما شئت من غيرها .

قال : قد فعلتُ ، ونعمة عين ، وقد أعفيتُك منها . ثم أمَرَ بها فردُّها

---

(١) كان أمر الزّبير حيال عليّ ـ رضي الله عنهما ـ شبيهاً بأمر طلحة ، كان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، فأرسل إليه عليٌّ يذكره بقول رسول الله ﷺ له : « لتقاتلنه ـ يريد تقاتل علياً ـ وأنت له ظالم » فانثنى عن الموقعة فراراً من الباطل وعوداً إلى الحق ، فلما انتهى إلى وادٍ يقال له : وادي السِّباع أخذه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له : عمرو بن جرموز .

(٢) « الصَّبيغ » : الثوب المصبوغ . « العرك » : الدّلك والحكّ . « المِرْكَنْ » : الآنية . أي : لا تتركني كالثوب المصبوغ الذي يُدلك فيغير الماء .

والمعنى : تريد من معاوية ألا يحرك كوامن نفسها ، ويكدر صفاءها الذهني والنفسي .

إلى الكوفة مكرّمةً بعد أنْ وصلها بجائزة رفيعة ، وأحسن منقلبها[1] .

* * *

نبَذٌ مِنْ حِكَمِهَا وَرَقَائِقِهَا :

* إنَّ امرأة مثل أمّ الخير بنت الحريش البارقية ، أوتيتْ من الفصاحة والبلاغة ما يعجز عنه البلغاء ، لجديرة أنْ تُؤثر عنها الرّقائق والحكم التي تصقل النّفوس ، وتهذّب الطّباع ، وترقّق القلوب ، وتدنيها من منابع الصّفاء . فمن روائع أقوالها التي أثرت عنها ـ يوم صفّين ـ قولها تناجي الله عزَّ وجلَّ ، فقد ورد أنّها رفعت رأسها إلى السّماء وقالت : اللهم إنّه قد عِيل الصّبر ، وضعف اليقين ، وانتشرتِ الرّغبةُ ، وبيدك اللهم أزمّة القلوب ، فاجمع اللهم الكلمةَ على التّقوى ، وألّف القلوب على الهدى .

* ومن بديع قولها في بيان أهل الحق ، وبيان أهل الباطل قولها أيضاً : مَنْ ضلَّ عن الحقّ ، وقع في الباطل ، ومَنْ لم يسكنِ الجنّةَ نزل النّار ، إنَّ الأكْيَاس استقصروا عُمْرَ الدُّنيا فرفضوها ، واستطالوا مدّةَ الآخرة فسَعَوْا لها . ولولا أنْ يبطلَ الحقُّ ، ويظهر الظّالمون ، وتقوى كلمة الشّيطان لما اختاروا ورودَ المنايا على خفْض العيش وطيبه[2] .

* تلكم هي أمُّ الخير بنت الحريش البارقية ، وذلكم هو وفاؤها ورأيها ؛ وتلك أخلاق القوم عصر ذاك ، أخلاق فيها صرامةٌ وجراءة وعنفٌ بالقول ـ أحياناً ـ وحريةُ رأي ، وقوةُ شكيمة .

---

(١) عن العقد الفريد (٢/١١٨ و ١١٩) بتصرف يسير جداً .

(٢) انظر تاريخ دمشق (ص ٥١٤ و ٥١٥) .

* وقد استمعنا إلى رأي أمّ الخير في تلك المشكلة التي أسالت الدماء، وحيرتِ العقولَ حيناً من الدّهر، ورأينا صورةً فريدة عن المرأة التّابعية في خطابتها ووقوفها أمام الخلفاء، وإعلان رأيها صراحة في آل البيت وبني هاشم، هؤلاء الذين:

نورُ النّبوّةِ والمكارم فيهم
متوقدٌ في الشّيبِ والأطفال

* رحم الله أمّ الخير البارقية، وجعلها مع الأخيار.

* * *